



أبحاث نظرية في تاريخ الفكر الاقتصادي

لنْ پارامور: ماذا تقمع الرأسمالية؟ من منظور يونغ * - في نقد نظرية اليد الخفية لآدام سميث

ترجمة: مصباح كمال

أن يعيش المليارات من الناس في ظل الظلم وانعدام الأمن بالكاد يعتبر نظامًا عقلائيًا.

يقدم علم الاقتصاد economics نفسه على أنه علم منطقي يتعامل مع المقاييس الموضوعية والمناهج الكمية، لكن المراقبين الأذكياء أدركوا منذ فترة طويلة أنه مليء بالعناصر السحرية والفانتازيا وعناصر غير منطقية لاواعية. وهذا يجعلها أرضًا خصبة لأولئك الذين يدرسون علم النفس البشري

تركز المناقشات المعاصرة للاقتصاد وعلم النفس في الغالب على الاقتصاد السلوكي، في حين أن التحليل النفسي، الفرع المخصص ظاهريًا لتعميق المعرفة باللاواعي، لا يجد له إلا حضورًا قليلًا في المناقشات. منذ أكثر من نصف قرن، اكتسب مفكرون مثل نورمان أو. براون Norman O. Brown وهربرت ماركوزة Herbert Marcuse جاذبية واسعة من خلال غوصهم في الخبايا الخفية والدوافع اللاواعية للاقتصاد، ولكن مع بدء تراجع قيمة سيغموند فرويد بين الأكاديميين في الستينيات، وضعت مناهج التحليل النفسي جانبًا أو تم تغيير صورتها - على الرغم من حقيقة أن قدرًا كبيرًا من الأبحاث العلمية الحديثة تدعم مفهوم فرويد عن اللاوعي.



أبحاث نظرية في تاريخ الفكر الاقتصادي

بينما نتصارع اليوم مع الأنظمة الاقتصادية التي تبدو أكثر تدميرًا لرفاهية الإنسان، هل حان الوقت لإعادة النظر فيما إذا كان للتحليل النفسي شيئًا مفيدًا ليقوله عن العلم الكئيب؟¹

ربما يبدو اسم الطبيب النفسي السويسري كارل يونغ [1875-1961]، الذي تفوح منه رائحة صوفية وباطنية، في غير محله في أي مؤتمر اقتصادي. لكن المحلل النفسي وأستاذ علم النفس مايكل فانوي آدمز Michael Vannoy Adams في كتابه **من أجل حب الخيال: تطبيقات متعددة التخصصات للتحليل النفسي**² يبين كيف أن اهتمام يونغ الخاص بالرموز - لجعلها واعية وفهم معناها وتأثيرها - يمكن أن يساعدنا في استخلاص ما يكمن في ظل الرأسمالية المعاصرة.

نقطة انطلاق آدمز هي صورة آدم سميث عن اليد الخفية invisible hand، ذلك التمثيل الأسطوري للقوة غير المرئية التي تنظم تصرفات الأفراد التي تخدم مصالحهم الذاتية اقتصاديًا وتحولها إلى منافع جماعية. من وجهة نظر آدمز، فإن اليد الخفية ليست فقط فكرة أساسية في الاقتصاد، ولكنها "الصورة الأكثر أهمية خلال الـ 250 عامًا الماضية" - وهي من الأهمية بمكان للرأسمالية مثل صورة المطرقة والمنجل للشيوعية. وفي مصطلح يونغ فإنها تمثل النموذج الأصلي³

¹ للتعرف على استخدام عبارة "العلم الكئيب" الذي ينسب إلى الكاتب والمؤرخ والفيلسوف الاسكتلندي توماس كارلايل (1795-1881)، راجع: Robert Dixon, 'The Origin of the Term "Dismal Science" to Describe Economics,'

<https://www.krannert.purdue.edu/faculty/smartin/ioep/dismal.pdf>

جادل كارلايل (1795-1881) بأن إعادة تقديم (أو استمرار) ممارسة استعباد السود سيكون من الناحية الأخلاقية أفضل من الاعتماد على قوى العرض والطلب في السوق، ووصف مهنة الاقتصاديين الذين اختلفوا معه، وعلى الأخص جون ستيوارت ميل، بأنها "كئيبة". وكان كارلايل يعتقد أن تحرير العبيد سيزيد أوضاعهم سوءًا!

² [For Love of the Imagination: Interdisciplinary Applications of Jungian Psychoanalysis](#)

³ بالسبب لكارل يونغ فإن النموذج الأصلي يعني صورة ذهنية بدائية موروثية من أسلاف البشر الأوائل، ويفترض أن تكون موجودة في اللاوعي الجماعي.



أبحاث نظرية في تاريخ الفكر الاقتصادي

archetypal. ويؤكد آدمز: "لا توجد صورة أخرى تسود العالم الحديث وتهيمن عليه".

ويشير إلى أنه في سياق الصور بشكل عام، فإن صورة اليد الخفية غريبة. لا يمكنك تصور ذلك حقاً. ومع ذلك، كما يذكرنا آدمز، كانت صورة اليد الخفية قيد التداول قبل وقت طويل من استخدامها من قبل سميث في مؤلفات تبدأ من هوميروس إلى فولتير للإشارة إلى قوى شبحية أو إلهية تتدخل في الشؤون الإنسانية. يلاحظ علماء الأدب أنه في زمن قريب من استخدام سميث لها، كانت الأيدي الخفية تظهر في الروايات القوطية لإغلاق الأبواب وتحريك الجانب البشري في الحكمة. يشير آدمز إلى نسخة مؤثرة بشكل خاص لليد المذكورة في كتاب أي أو هيرشمان⁴ A.O. Hirschman المشاعر والمصالح – حيث نجد الرسم التوضيحي المعاد إنتاجه ليد سماوية غير مادية تضغط على قلب بشري تحت شعار "Affectus Comprime" أو، كما في ترجمة هيرشمان، "قمع المشاعر!" إن كان هناك صورة تحليلية نفسية أخرى في أي وقت مضى فهذه هي الصورة.

كما يشير آدمز، عندما ذكر سميث لأول مرة اليد الخفية في أطروحة حول علم الفلك (في مقال لم يُنشر خلال حياته ولكن ربما كُتب قبل عام 1758)، فإنها كانت صورة أسطورية - يد كوكب المشتري تُحرّك الأجرام السماوية في السماء. في وقت لاحق، أصبحت هذه اليد يدًا اقتصادية، وقد ورد ذكرها أولاً في نظرية المشاعر الأخلاقية عام 1759 ثم مرة أخرى في ثروة الأمم عام 1776.

يفسر سميث اليد الاقتصادية الخفية على أنها التأثير الذي يقود الأفراد الذين يسعون وراء مصلحة خاصة لتعزيز الصالح العام دون إدراك ذلك. في كتابه نظرية المشاعر الأخلاقية *Theory of Moral Sentiments*، وعند تحديد الحالة التي ينتهي فيها مالك الأرض الثري بتوظيف العمال من خلال إنفاقه على الكماليات، يوضح سميث أن اليد تساعد الأثرياء، على الرغم من "رغباتهم النهم"، في تقاسم بعض ثروتهم مع الفقراء. في وقت لاحق، في ثروة الأمم، يصف اليد في فصل

⁴ ألبرت هيرشمان (1914-2012)، صاحب نظرية النمو غير المتوازن لتعبئة الموارد بالتأكيد في التنمية الاقتصادية على تلك الصناعات ذات الروابط المتعددة بصناعات أخرى.



أبحاث نظرية في تاريخ الفكر الاقتصادي

عن التجارة، مقترحًا أن اليد الخفية توجّه التجار وأصحاب المصانع الذين يعملون لمصلحتهم الخاصة من أجل الربح لتحقيق نتائج إيجابية للجميع من غير قصد.

وهكذا، من خلال بعض السحر الجريء، فإن لمسة اليد الخفية تُحوّل الأنانية إلى فضيلة. وهذا، كما يصفه آدمز، يشكل "انقلابًا أخلاقيًا" - انقلابًا رأسًا على عقب لتقليد طويل من النظر إلى الأنانية على أنها واحدة من أقل السمات البشرية المرغوبة. وكما يرى آدمز، كانت آثار هذا الانقلاب على الشؤون الإنسانية عميقة.

من خلال العدسة اليونانية Jungian التحليلية التي استخدمها آدمز، يمكن رؤية اليد الخفية وهي تمسح الشعور بالذنب. فتحت تأثيرها، يمكن لأي شخص أن يشعر بالبراءة أثناء التصرف بجشع والانغماس فيما كان يُعرف سابقًا بإحدى الخطايا السبع المميتة.⁵ من منظور يونغي، ما يحدث عندما لا ندرك ذنبنا هو أننا نميل إلى إسقاطه على الآخرين كظل، رمز نزاعاتنا الأخلاقية التي لم يتم حلها. في أنظمة السوق الحرة، يعتبر الفقراء مذنبين، ويلامون على وضعهم وفشلهم في التصرف بطرق تزيد ثروتهم. وهكذا يُحكم على الفقراء بالذنب بسبب تصرفات الأثرياء القائمة على المصلحة الذاتية.

يلاحظ آدمز أن اليد تؤدي وظيفة دينية أيضًا، أي في تمثيلها لإله السوق، الإله الذي طالما عبده الاقتصاديون. إنه ينظر إلى هذا الإله على أنه *deus absconditus* - إله غير مرئي ومخفي عن عمد، مثل صورة الرب التوراتي يهوه. بمعنى آخر، فإن *deus absconditus* هو إله غائب عندما يكون الناس في ورطة شديدة. أو إله لا يُدرك أو غامض. لماذا، على سبيل المثال، تكون اليد الخفية ضرورية إذا كان السلوك الأناني ينتج بشكل طبيعي نتائج اجتماعية مفيدة؟

يلاحظ آدمز أن صورة اليد الخفية، مثل الرب يهوه، تمنح ما هو مخفي امتيازًا على حساب المرئي، والمجرد على المتجسد، والعقل على الحواس. يبدو أن هذه الوظيفة منتشرة في علم الاقتصاد، حيث غالبًا ما يقع الممارسون في حب النماذج المجردة التي أعمتهم عما يمكن رؤيته بسهولة في الواقع، لا سيما فقر ومعاناة

⁵ وتشمل: "الغرور" و"الجشع" و"الشهوة" و"الحسد" و"الشراهة" و"الغضب" و"الكسل".



أبحاث نظرية في تاريخ الفكر الاقتصادي

الكائنات الحية المجسدة. تصبح اليد كإله السوق أيضاً قوة خارقة *deus ex machina* كتلك التي كان يتم إنزالها على خشبة المسرح في الدراما القديمة لتقرير النتيجة النهائية للمسرحية، أو على نطاق أوسع، الآلية التي تحقق حلاً لمشكلة تبدو غير قابلة للحل. وبهذه الطريقة، تتلاعب اليد الخفية بالاقتصاد إلهياً وآلياً. ومهما كانت المشكلة الاقتصادية، ومهما كانت شائكة، فإن اليد الخفية هي الحل الوحيد: تينا *TINA – There Is No Alternative* - لا بديل. لقد صار التحدث ضد إله السوق مصدرًا للتشكيك في مصداقيتك، وارتكاب خطيئة الكفر. وبالنسبة لعُباد اليد الخفية، فإن السوق تمتلك حكمة لا حدود لها للتصرف بالطريقة التي تتصرف بها فعلاً.

يلاحظ آدمز أن إله السوق هو إله غيور، وكالإله يهوه لن يقبل بوجود آلهة أخرى. إذا كانت الحكومة تسعى للتدخل في السوق الإلهي المطبوع على الخير فلا بد أن تكون الحكومة شيطانية. هذه الصورة لإله السوق، وفقاً لأدامز، تسمح للاقتصاديين بقمع التجربة الفعلية للأزمات الاقتصادية من خلال استدعاء شعار مفاده أن التدخل الحكومي ليس ضرورياً أبداً. وبالتالي، فإن عيوب السوق يتم وضعها في طي النسيان ولما يسميه آدمز "اللاوعي الاقتصادي". يحذر آدمز أن احتكار إله السوق يزاحم الصور الأخرى، وهي الصور التي قد تساعد في توجيهنا نحو قيم مثل نكران الذات.

يشير آدمز إلى أنه بتجنب ضرورة التنظيم الحكومي *government regulation*، فإن اليد الخفية تستغني عن أي مساءلة بشرية عن الاقتصاد. في النهاية، في الرؤية المتطرفة للنيلولبيرالية، يصبح كل شبر من المجتمع البشري في قبضة اليد، مع خصخصة كل شيء من الطب إلى التعليم. إن السوق تجعل الحكومات غير ضرورية باستثناء حماية مصالح الرأسماليين، مما يؤدي إلى ضخ أموال ضخمة من الشركات والأثرياء للسيطرة على الدولة وتعزيز سلطتهم. ويبدو أن اليد الخفية في الأسواق غير المنظمة *unregulated* تفعل عكس ما وصفه سميث – إرشاد النشاط الذي يميل إلى إفادة القلة فقط.

إن جائحة فيروس كورونا، مثل الأزمة المالية العالمية في عامي 2007 و 2008، أفقدت المصداقية الأيديولوجية لليد الخفية، وكشفت كيف أن النشاط الأناني الحثيث



أبحاث نظرية في تاريخ الفكر الاقتصادي

لا ينتج فوائد اجتماعية، بل تدميرًا اجتماعيًا. كشفت أزمة كوفيد كيف أن تدهور الخدمات العامة يجعل المجتمعات الرأسمالية أكثر عرضة للاضطراب وأقل صلابة. لقد عادت اليد المرئية للحكومة من خلال التحفيز المالي fiscal stimulus، والفوائد للعمال العاطلين عن العمل، والسياسة النقدية. هناك ردة على قدم وساق، لكن هذا لا يعني هزيمة إله السوق. يشهد على ذلك الموجة الحالية من الحجج القادمة من العديد من الجمهوريين، ومؤخرًا، جيف بيزوس، الذي يلقي باللوم على التضخم المرتفع في خطة الإنقاذ الأمريكية لبايدن وشيكات التحفيز الحكومية، كما لو أن مشاكل سلاسل التوريد والممارسات الاحتكارية لا علاقة لها بها؛ كما لو أن الإيمان بحكمة إله السوق التي لا جدال فيها لا يؤدي إلى معاناة المليارات من البشر من وجود قاسٍ وبائس.

هناك الكثير من الحديث هذه الأيام حول احتمالية حدوث ركود - ربما ينبغي أن نشعر بالقلق أيضًا بشأن القمع المستمر. في عام 1957، أصدر يونغ هذا التحذير حول الفشل في التعرف على الظل وفهم عمليات اللاوعي:

"يمكن للمرء أن ينظر إلى معدته أو قلبه على أنه غير مهم ويستحق الازدراء، لكن هذا لا يمنع الإفراط في الأكل أو المجهود من أن يكون له عواقب تؤثر على الإنسان بأكمله. ومع ذلك، نعتقد أنه يمكن التخلص من الأخطاء النفسية وعواقبها بمجرد الكلمات، لأن كلمة "نفسية" تعني أقل من الهواء لمعظم الناس. على الرغم من ذلك، لا أحد يستطيع أن ينكر أنه بدون الروح لن يكون هناك عالم على الإطلاق وعالم إنساني أقل. عمليًا كل شيء يعتمد على الروح البشرية ووظائفها. يجب أن يكون الروح جديرًا بكل الاهتمام الذي يمكن أن نولي له، خاصةً اليوم، عندما يعترف الجميع بأن الفرح والحزن في المستقبل لن يتحدد بهجمات الحيوانات البرية ولا الكوارث الطبيعية ولا بخطر الأوبئة في جميع أنحاء العالم ولكن ببساطة بالتغيرات النفسية في الإنسان."

وقبل ذلك جادل المحلل النفسي أوتو غروس Otto Gross (1877-1920)، وهو زميل قريب ليونغ وأثر على يونغ، بأن البحوث في اللاوعي هي الأساس الضروري لأي نوع من الثورة أو استعادة القيم الأخلاقية. إنه يوجهنا إلى مشروع تحرير القيم المكبوتة للمساعدة المتبادلة والتعاون التي يولد بها البشر. عندها فقط يمكننا أن نودع اليد الخفية. ■



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أبحاث نظرية في تاريخ الفكر الاقتصادي

الهوامش من وضع المترجم.

(*) لِنُ پارامور Lynn Paramore كبيرة محلي الأبحاث في معهد التفكير الاقتصادي الجديد.

Institute for New Economic Thinking

نشر المقال في موقع معهد التفكير الاقتصادي الجديد، 17 حزيران 2022. رابط المقال:

What Does Capitalism Reprress? A Jungian Perspective. | Institute for New Economic Thinking (ineteconomics.org)

(**) مصباح كمال، كاتب في قضايا التأمين

تمت الترجمة بتاريخ 7 آب 2022

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر. 15 آب 2022

<http://iraqieconomists.net/ar/>